البدو

بقلم الدكتور رينهارت دوزى المستشرق الهولندى

Dr. Reinhart P. A. Dozy

ترجمة الفصل الاول من كتابه (تاريخ مسلمي الاندلس حتى استيلاء المرابطين على الاندلس)(*)

HISTIORE des MUSULMANS D' ESPAGNE

jusqu' à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides

بينما تسير أوروبا قرناً بعد قرن في سبيل الترقي والتقدّم فان البقاء على وتيرة واحدة هو الصفة الغالبة ، والخاصة الثابتة ، لذلك العدد الذى لا يحصى من القبائل التي تهيم بخيامها وأغنامها في صحراء بلاد العرب الفسيحة الجرداء . وكانت حالتهم بالامس كحالتهم اليوم ، وكذلك ستكون حالتهم في الغد ، ولا يزال البدوي يحتفظ بتلك الروح التي انبعثت في أجداده في ايام محمد (صلى الله عليه وسلم) بكل صفاتها ونقاوتها . وأحسن شرح وتعليق على تاريخ عرب الجاهلية وشعرهم الاوصاف التي ذكرها السائحون من أهل العصر الحاضر عن عادات البدو وأحوالهم وأساليب تفكيرهم !

بيد أن هذا الشعب لا ينقصه الذكاء ولا النشاط اللازم لتمديد حدوده ، وتحسين أحواله ، اذا كان ذلك مطمحه ورغبته . واذا كان العربي واقفاً في مكانه لا يتقدم ، واذا كان لا يزال بعيداً عن فكرة التقدم نفسها ، فما ذلك الا لأنه لا يرغب في تغيير حظه وتبديل حالته ، لعدم اكتراثه بلين العيش ورفاهته وبالملذات المادية التي تجلبها الحضارة . وصلف البدوي يؤكد له أنه يتجسم فيه اكمل وأتم نموذج للمخلوقات الكائنة ، فهو يحتقر غيره من الامم لمجرد أنها ليست مثله . وهو يعتقد اعتقاداً راسخاً لا كفاء له بأنه أسعد حالا

(*) نقلاً عن (الفنون) بتصرف لفظي . ونحن نقصد من نقل هذا المقال وأمثاله أن يكون قراء العربية على علم بما يقال عنا ، ولو كان ما ننقله مخالفاً لرأينا ووجهة نظرنا أحياناً

من الرجل المتحضر ، وان لكل حالة من حالات الحياة محاسنها ومساوئها . ولكن سلف البدوي من السهل فهمه ، فصدر ذلك انه لا يسترشد في حياته بمبادىء فلسفية ، وانما يستهدي بنوع من الغريزة ، وقد سار في حياته من أزمنة ضاربة في شعاب القدم بشعار الثورة الفرنسية : « الحرية والمساواة والاخاء »

ولم يرث أحد على سطح الغبراء نصيباً أوفر من نصيب العربي في الحرية ولا قسطاً أعظم من قسطه ، فهو يفخر دائماً قائلا : « لا اله الا الله » . والحرية التي يرتع في بحبوحتها لا تقلها سوى قيود قليلة ، حتى أن مبادىء متطرفي الاحرار تظهر الى جانبها كمبادىء استبدادية . والحكومة في أمم الحضارة على أي شكل من أشكالها شيء لازم وشر لا محيص عنه ، هي شر ولكنها شرط جوهري للخير . والبدوي يرى نفسه في غير حاجة اليها . والواقع أن لكل قبيلة رئيساً قد اختارته ذا جاه ونفوذ ، فهو محترم المكانة ويؤخذ بنصائحه ، ولا سيما اذا كان مفوهاً حاضر الخاطر ، ولكنه لا يملك حق اصدار أوامر . وهو لا يستفيد من رياسته مغنماً . وانما الامر على عكس ذلك : فهو مطالب ـ بل هو مرغم بالرأي العام ـ بأن يسد خلة الفقير ، وأن يقاسم أصحابه الكسب الذي يناله ، وأن يكرم وفادة الغريب اكراماً أعم فيضاً واكثر نفقة من اكرام سائر أبناء القبيلة . وهو مضطر في كل أمر الى أن يرجع الى مشاورة مجلس القبيلة المتكون من رؤساء العشائر . ولا يمكنه ـ بغير موافقة هذا المجلس ـ اشهار الحرب أو اجراء الصلح بل ولا نقل مضارب الخيام

ولقب « شيخ » الذي تمنحه القبيلة لأحد أبنائها هو في الحقيقة لقب أجوف ، وشهادة عامة للاحترام المنظور اليه به ؛ وهو اعتراف صوري بأن حامله أقدر القبيلة ، وأشجع أبنائها ، وأجودهم كفاً ، وأشدهم غيرة على مصالحها . وقد قال أحد قدماء العرب « نحن لا نمنح هذا اللقب لانسان الا

اذا قدم لنا كل ما يمتلك ، والا اذا رخص لنا في أن نطأ بأقدامنا كل عزيز عليه ، وأدى لنا كل الخدمات التي تنتظرها من خادم لنا »

وسلطة الرئيس في الغالب من الضئولة بحيث لا يشعر بها . سأل معاوية مرة عرابة ـ الذى عاصر النبي صلى الله عليه وسلم[1] ـ :

ـ بم سدت قومك ؟

فقال : ـ لست بسيدهم ، ولكني رجل منهم

فعزم عليه معاوية . فقال عرابة :

ـ أعطيت في نائبتهم ، وحملت عن سفيههم ، وشددت على يدي حليمهم . فمن فعل منهم مثل فعلي فهو مثلي ، ومن قصر عنه فأنا أفضل منه ، ومن تجاوزه فهو أفضل مني[2]

وكانت حالة البدو اذ ذاك كحالتهم الآن : فقد كان في بعض الاوقات يعزل الرئيس اذا كان لايستطيع الاحتفاظ بمركزه ، أو اذا وجد بين افراد قبيلته من هو اكثر منه إقداماً وأسخى كفاً

والمساواة المطلقة ولو أنها لاتوجد في الصحراء ، الا أنها هناك قد وصلت الى حد لم تصل اليه في أي ناحية من النواحي . والبدو لايعترفون بعدم

---

(١) عرابة ـ بوزن سحابة ـ هو ابن أوس بن قيظي بن عمرو بن زيد بن جشم بن حارثة . من بني مالك بن الاوس ، ثم من بني حارثة منهم . وهو من الانصار من أهل المدينة . قال ابن حبان : له صحبة . وقال ابن اسحاق : استصغره النبي صلى الله عليه وسلم والبراء بن عازب وغير واحد فردهم يوم غزوة أحد

(٢) من الامثلة على كرم عرابة بن أوس وفضله أنه كان ذات يوم عائدا الى المدينة من سفر ، فجمعه الطريق والشماخ بن ضرار المري الشاعر الصحابي فتحدثا . فقال له عرابة :

ـ ما الذي أقدمك ؟

قال الشماخ : ـ أردت أن أمتار لاهلي

وكان مع الشماخ بعيران ، فأوقرهما له عرابة براً وتمراً ، وكساه وأكرمه . فخرج الشماخ من المدينة وامتدحه بالقصيدة التي يقول فيها :

رأيت عرابة الاوسي يسمو ... الى الخيرات منقطع القرين

اذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

المساواة في الروابط الاجتماعية لانهم يعيشون على نمط واحد ، ويلبسون أزياء واحدة ، ويأكلون طعاما متشابها . وليست حكومة الطبقة المتمولة بالممكن تصورها عندهم ، لان المال في نظرهم لا يزيد الاحترام ولا يعلى المكانة . والمثل الاعلى عند الفارس العربي هو ازدراء الثروة والعيشة من اليد الى الفم على الغنائم التي ينتزعها بشجاعته بعد ان يبدد ميراثه في الكرم واتلاف المال . واحتقار الغنى من غير شك دليل النخوة والشهامة والهدوء الفلسفي : ولكن يلزم أن نراعي أن الثروة ليس لها أهمية عند البدوي كما لها عند غيره ، لان كل ما يمتلكه البدوي غير ثابت ولا مستقر ويتفلت من يده بخفة مدهشة . قال شاعر منهم :

أماوي ان المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

وهذا وصف صادق لحالة الصحراء

ولما كان البدوي يجهل الزراعة ولا يمتلك ذراعاً من الارض فثروته الوحيدة الابل والخيل ، وتلك أموال لا يعتمد عليها ساعة واحدة . لانه اذا هاجم الاعداء قبيلته وهو أمر يقع كل يوم فانهم ينتهبون كل ما يملك ، فيجد غني الامس نفسه فقير اليوم ، ولكنه في الغد يثأر لنفسه ويعود غنياً كما كان

والمساواة المطلقة على أي حال لا توجد الا في حالة الطبيعة وحالة الطبيعة محض تجريد . والبدوي يعيش في ظلام المساواة المتبادلة الى حد معين . ولكن مبادئه المحافظة هذه لا تشمل الانسانية جمعاء ، فالبدو لا يعدون أنفسهم اسمى من عبيدهم وموالهم فحسب ، بل يعدون أنفسهم أرقى من العمال الذين يكدحون للحصول على القوت ، وأسمى من كل الناس كائنا من كانوا . وهم يزعمون أنهم خلقوا من طينة غير الطينة التي خلق منها سائر البشر . وعدم المساواة الطبيعية تسوق في طريقها المميزات الاجتماعية . فاذا كانت الثروة لا تزيد في أهمية البدوي ولا ترفع مكانته وتعلي جاهه فان الكرم و حسن الضيافة والشجاعة والشاعرية والفصاحة تزيده رفعة ومكانة . قال حاتم الطائي :

كذاك أمور الناس : راض ودنية وسام الى فرع العلى متورد
فمنهم جواد قد تلفت حوله ومنهم لئيم نائم الطرف أقود

وارستقراطيو الصحراء ـ أو ملوك العرب كما يسميهم عمر بن الخطاب ـ هم الخطباء والشعراء وكل من يتحلى بفضائل البدو ؛ والسوقة هم الخساس الادنياء الذين لا يتصفون بها . ولم يعرف البدو الألقاب والامتيازات الا اذا اعتبرنا قولهم « الكامل » لقبا وكانوا يدعون به كل من اقترنت فيه الملكة الشعرية بالشجاعة والجود واجتمعت له معرفة الكتابة والقدرة على السباحة واحناء القوس ! ومع ذلك فان شرف المولد — الذي اذا فهم كما ينبغي يلقي مسئولية عالية ويربط اجيالا متعاقبة برباط متين ـ يوجد حتى بين البدو ، فقد كانوا يقدسون ذكرى رجالاتهم

وسلالة الانجاد تحب وتحترم على شرط انهم ـ ولو لم يرثوا مواهب آبائهم — يحفظون في قلوبهم الحب والاعجاب بالاعمال النبيلة والخصال الشريفة والمواهب العالية . وكان يعد شريفا قبل الاسلام من كان سيدا في قبيلته والذي أعتلى أبوه وجده الاعلى من قبل مسند الرياسة . ولا شيء أكثر مجاراة للطبيعة من ذلك ، وما دام لقب (شيخ) لا يمنح الا للأعم فضلا والأنبه ذكراً فمن المعقول ان تعد الفضائل البدوية متأصلة في الأسرة التي تنبغ منها رؤساء القبيلة مدة أربعة أجيال

وبدو القبيلة الواحدة كلهم اخوان . وهذا هو الاصطلاح الذي يتنادى به أبناء القبيلة الواحدة المتقاربين في السن . وكان الرجل الكهل في تحدثه الى الشبان يدعوهم بأبناء أخيه . وكان البدوى ينحر آخر غنمه — اذا دعت الضرورة ـ ليقدم الطعام لاخيه الذي برّح به سعار الجوع وأصبح في حاجة الى المساعدة . وهو ينكر أية اهانة يلحقها رجل من قبيلة اخرى بأخ له ويعتبرها اهانة موجهة لشخصه ولا يقر قراره حتى يثأر له

ومن الصعب اعطاء فكرة تامة واضحة عن هذه العصبية ، اعنى اخلاص

العربي العميق غير المحدود لابناء قبيلته ، وذلك التفاني المطلق في سبيل مصالح قومه الذين ولد فيهم وسيموت بينهم وتحقيق رفاهتهم ومجدهم وسؤددهم . وهذه العاطفة لاتوازي عاطفة القومية في المعنى الذي نفهمه ، لان هذا المعنى يظهر للبدوي المتقد فاتراً هامداً ، أما عاطفة البدوي فحنيفة مستوحشة غلابة طاغية ، وفي نفس الوقت هي أول واجباته وأقدسها ، وبالاختصار هي ديانة الصحراء الصادقة !

والعربي يضحي كل شيء من أجل قبيلته . فهو من أجلها يخاطر بحياته في مجازفات محفوفة بالاخطار غير مأمونة العواقب يعمل فيها اليقين والحماسة الخوارق والمعجزات . ومن أجلها يحارب ويطاعن حتى يسحق جسمه ويمحى رسمه تحت اقدام العدو . وقد قال شاعر منهم أن صلة الانسان بقبيلته أمتن وأرسخ من صلته بزوجته . كذلك المعنى الذي يفهمه البدوي للحرية والمساواة والاخاء

ان هذه الخيرات تكفي العربي ولا يتطلب غيرها ولا يحلم به . وهو قانع بنصيبه راض بحظه . أما أوروبا فلاتقنع بنصيبها واذا قنعت به فلزمن قصير. أليست جهودنا المحمومة و ظمأنا الى الاصلاحات السياسية والاجتماعية ومحاولاتنا المتقطعة لتحسين أحوالنا وترقيتها ـ أليست هي في الواقع علامات التعب والاجهاد ، واعتراف ضمني بالقلق الذي يقرض في جذور المجتمع الغربي ؟

وقد أممن الناس غلواً في الاشادة بفكرة التقدم سواء في ذلك اساتذة الجامعات والمشتغلون بالسياسه ، فهي الفكرة الجوهرية للنظم الاجتماعية الراهنة . ولكن هل كان الناس يكثرون من الثرثرة بلا انقطاع عن التغيير والتحسين والاصلاح لو كانت حالتهم سليمة صحيحة ولو كانت السعادة من نصيبهم ؟ واننا في انطلاقنا المتواصل وراء الرفاهة والرغد بلا فائدة ، وهدمنا اليوم ما بنيناه بالامس ، وانتقالنا من وهم الى وهم ومن خيبة أمل الى فشل ، ننتهي باليأس من البشرية وترديع الآمال فيها ، ونهتف في اوقات انكسارنا

وانقباضنا بأن مصير الانسان ليس مرتبطاً بمآل الدول والحكومات ، وتنزع نفوسنا المتلهفة الى نعيم مجهول في دنيا غير منظورة . أما البدوي فانه لا يشعر بشيء من ذلك ، ولا تساوره هذه الخطرات ، ولا تطوف بنفسه تلك النزعات الغامضة الى مستقبل أزهر وأسعد . وروحه المرحة الطروب المنبسطة غير المكترثة والتي تشبه السماء في صفائها لا تأخذ بنصيبها من همومنا وأحزاننا ، ولا تقاسمنا آمالنا الشبيهة بالظلال . ولكن حياة الصحراء التي لا غرض لها تظهر لنا ـ ونحن الذين لا ينى الخيال بهفو بطموحنا غير المحدود ونزوعنا المضجر ـ غير محتملة لتشابهها الدائم واطرادها المستمر . ونحن نؤثر اهتياجاتنا وثورات نفوسنا المعتادة وهمومنا ومصاعبنا ومشكلاتنا السياسية وحتى طلقات حضارتنا المتمخضة ـ نؤثر كل ذلك على جميع المزايا التي يتمتع بها العربي في حياته الراكدة غير المتغيرة

وهناك فرق جوهري بين الأوروبي والعربي : فأن خيالنا من الخصوبة بحيث لا يسمح لنا بالراحة الذهنية ، ومع ذلك فنحن نعزو تقدمنا الى تلك الموهبة ونستمد منها تفوقنا النسبي . وحيث ينقص الخيال وتتقلص ظلاله يستحيل التقدم . ومن اجل تكميل حياتنا الاجتماعية وتنمية العلاقات المتبادلة بين الناس فأن من اللازم الضروري أن نمثل للعقل صورة للمجتمع أقرب الى الكمال من المجتمع الذي نعيش فيه . ولكن خيال العرب ضيق وجد ضئيل وان كان المعروف عنهم غير ذلك . ودماؤهم احر من دمائنا ، وميولهم أقوى وأشد تأججاً ، ولكنهم في نفس الوقت أبعد الشعوب عن الابتكار . ولأجل أن نعترف بهذه الحقيقة ونؤمن بها ما علينا الا أن نلقي نظرة واحدة الى دينهم وأدبهم :

لقد كان لهم قبل اعتناقهم الاسلام آلهة من الاجرام السماوية ، ولكن لم يكن لهم أساطير (ميثولوجيا) مثل الهنود واليونان وأهل اسكندينافيا ، وليس لآلهتهم تاريخ جغرافي ، ولم يحلم شاعر من شعرائهم بصوغه وتلفيقه .

والدين الذي دعا اليه النبي (صلى الله عليه وسلم) أو بشر به نوع بسيط من الوحدانية . وهو بلا مدافع أبسط الاديان الوضعية وأبعدها عن الابهام والغرابة، وهو اكثر اتفاقاً مع العقل واكثر نقاء وصفاء في نظر الذين يتجنبون الخوارق ، ويتحاشون النظام الطقسي ، وزخارف العبادة

وفي أدبهم تجد نفس النقص في الابتكار ، والجنوح الى الواقعي المحسوس والوضعي . وقد أخرجت الشعوب الأخرى ملاحم يلعب فيها الفرق الطبيعي دوراً مهماً . وليس في الادب العربي ملحمة واحدة ، بل ولا قصيدة قصصية . ولما كان الشعر العربي مقصوراً على الشعر الوصفي والشعر الغنائي فانه لم يحاول قط أن يصور الا الجانب الشعرى في الحياة العملية . وشعراء العرب يصفون ما يبصرونه وما يشعرون به ولكنهم لا يبتكرون شيئاً واذا طارت في قريضهم شرارة من الخيال فان نقادهم بدلا من أن يمدحوهم يقولون عنهم انهم كذابون

والنزوع الى غير المحدود والطموح الى المثل الاعلى مجهول عند البدو . والدقة وجمال التعبير وحسن الأداء ـ وهي جانب الصنعة في الشعر ـ الاهمية الكبرى في عيونهم . والحقيقة أن الابتكار في الادب العربي نادر الى حد أننا اذا لمحنا له أثراً في بعض المقاطيع الشعرية التي يبدو فيها اثر الخيال أو في بعض القصص يمكننا أن نثق بأننا ازاء شيء مترجم وليس بالعربي الاصل . فقصص الف ليله وليلة ـ التي أشاعت الايناس والبهجة في طفولتنا وكل مافيها من حكايات السحر التي هي بنت خيال سري مرح ـ هي من أصل فارسي أو هندى . والاجزاء العربية الوحيدة في كل تلك المجموعة الكبيرة هي تصوير العادات والنوادر المأخوذة من الحياة الواقعية

ولما استقر العرب في الاقاليم التي فتحوها بحد السيف حولوا التفاتهم الى العلوم فأظهروا نفس العجز ونقص القوة المبتكرة الخلاقة . وقد ترجموا وعلقوا على كتابات القدماء . وزادوا في ثروة بعض فروع العلم بصبرهم

وملاحظتهم الدقيقة [1] . ولكنهم لم يكتشفوا اكتشافاً عظيماً ولسنا مدينين لهم بفكرة واحدة عظيمة مثمرة

كذلك اذن الفروق البعيدة الغور الموجودة بيننا وبين العرب . وربما كان العرب اسمى منا أخلاقاً ، وأصدق عظمة نفس ؛ وربما كانوا أقوى منا شعوراً بجلال الانسان وكرامته ، ولكن لم تكن في ثرى نفوسهم بذور للتقدم والنمو مثلنا . وتوقانهم الشديد للحرية الشخصية ونقص الغريزة السياسية في نفوسهم من القوة والتأصل بحيث تجعلهم غير قابلين للقوانين الاجتماعية . ومع ذلك فقد قاموا بتلك المحاولة : فقد جذبهم من الصحراء نبي منهم ودفع بهم الى غزو الدنيا ، فملأوها بمفاخر أعمالهم . فلما أثروا من غنائم العشرين اقليماً التي اكتسحوها تعلموا لذات الحياة ومناعمها . وحثهم الاحتكاك بالشعوب التي أخضعوها لحكمهم على الاشتغال بالعلوم فوصلوا من الحضارة الى المستوى الذي سمحت به قدرتهم . ومع ذلك فانه مرت سنوات كثيرة بعد عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يفقد العرب خصائصهم القومية

على ارقهم

﴿ جامعة اللغة العربية ﴾

قال الاستاذ الدكتور منصور فهمي في خطبة ألقاها في يافا وهو عائد الى مصر :

« اني سفير مصر اليكم ، ولكن لست سفيراً سياسياً بل هناك سفارة اعظم من هذه وهي سفارة الادب والعواطف المتبادلة بين البلادين . وان هناك سلطاناً عظيماً يصل هذه البلاد ويربطها برباط وثيق وهي اللغة العربية والصلة الادبية ؛ فنحن نقرأ ما يكتب أدباؤكم وأنتم تقرأون ما يكتب أدباؤنا ، ويشعر شاعركم فنشعر ، ويشعر شاعرنا فتشعرون »

---

(١) لعل الكثيرين ممن يقرأون هذه الفقرات يتذكرون أمثالها مما كان يقوله العلماء في بلاد الحلفاء عن زملائهم من الالمانيين مدة الحرب الكونية ، فانهم ولا سيما الفرنسويين منهم ظلوا طول مدة الحرب يقولون : ان الالمان ليسوا مبتكرين ، وانما تبلغهم فكرة يبتكرها الفرنسوي أو غيره فيمحصونها ويعلقون عليها ويرقونها بصبرهم وملاحظتهم الدقيقة . . .
(الزهراء)